مقدمة : الطريق إلى التجاوز

فى النصف الثانى من القرن العشرين (الذى اعتدنا بعد تردد على أن نصفه بالقرن الماضى) خبرت البشرية مقولة «أن التغير هو الثابت الوحيد» . وفى العقود الأخيرة من هذا القرن ، وبالذات منذ عام ١٩٧٠ الذى صدر فيه كتاب ألفين توفلر «صدمة المستقبل» ، تركز الحديث على «سرعة التغير» وآثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل عام . واعتمدت تحليلات التغير وسرعته على دراسة منجزات «الثورة العلمية والتكنولوجية» وآثارها الحاضرة والمستقبلية لقد عبر توفلر عن ذلك بمفهوم «الموجة الثالثة» التى تلت موجتى الزراعة والصناعة فى حياة البشر . وشاعت بعد ذلك مصطلحات «المجتمع ما بعد الصناعى» و «مجتمع المعلوماتية» و «مابعد الحداثة» . وشهدت نهايات القرن العشرين إرهاصات الحديث عن «مجتمع المعرفة» ، وقيام أنشطته على أساسها ، ونضج التنظير لبعضها (اقتصاد المعرفة مثلاً) بشكل واضح .

لكن المشهد الاستعراضى للعقد الأخير من هذا القرن ، وما حمله من أحداث كبرى متباينة ، دفعنى إلى الانتباه إلى فكر جديد يدعو إلى تجاوز «التجربة الإنسانية» نفسها والتخلص من قيودها ، على حد تعبير أصحاب هذا الفكر . ودون محاولة للحصر أو التصنيف ، يمكننا أن نذكر أمثلة لهذه الأحداث المتباينة : ظهور القطبية الأحادية والإعلان عما سمى بالنظام العالمى الجديد ، بعد سقوط الكتلة الشرقية وقيادة التحالف فى حرب الخليج الثانية ، بأبعادها العبثية الدامية من كل الأطراف – الثورة الرقمية التى صاحبت انتشار الإنترنت وتأثيرها المتزايد على حياتنا – تكنولوجيا الواقع الافتراضى – التفكير جدياً فى سكنى الفضاء وعدم ارتباط مصيرنا بالأرض فقط ، مع الاشتراك فى إنشاء المحطة الدولية بعد سقوط «مير» والاتحاد السوفيتى معاً – نجاح استنساخ

الحيوانات الثديية (دوللى) ، والإعلان عن إمكانية استنساخ الإنسان بل واحتمال حدوث ذلك فعلاً – البدء فى مشروع خريطة الچينوم البشرى ، وإعلان مسودته الأولى عام ٢٠٠٠ (الذى يرى البعض أنه نهاية القرن العشرين ، ويرى البعض الآخر أنه بداية القرن الحالى ، وكانت الحوارات حول ذلك من بين مكونات المشهد الاستعراضى المذكور) – التعايش مع الكائنات المحورة وراثياً ، والجدال المستمر حولها – خريطة المخ ، ووصف التسعينيات بعقد المخ ، حيث عرفت البشرية عنه فى هذا العقد ، ما يفوق كل ما عرفه منذ فجر التاريخ – الروبوطات الذكية التى يخشى البعض تفوقها على الإنسان «بصورته الحالية» ، ويدعون إلى تغييره للاحتفاظ بالصدارة – تثوير علاقة الإنسان بالآلة ، والانتقال من مجرد اعتبار الآلة امتداداً خارجياً لقدرات الإنسان إلى إيجاد علاقات إندماجية أدت إلى ظهور أول كائن بشرى سيبرى (سيبورج) زرعت فيه أداة للتواصل بين عقله والأجهزة الموجودة بالعالم الخارجى – القواعد شديدة الوطأة ، فى رأى الكثيرين ، لمنظمة التجارة العالمية، التى امتدت إلى كل أشكال الملكية الفكرية – حق التدخل ، الذى يمارس تحت غطاء «التدخل الإنسانى» ، وإن كان يتم بصورة لا تجعله يفترق كثيراً عن «غطرسة القوة» .

وإذ أؤكد مرة أخرى أن الأحداث السابقة بعيدة عن الحصر والتصنيف ، أود أن أتوقف أمام «حق التدخل» ، باعتباره المحور الختامى لهذه الكراسة . وحق التدخل هنا يختلف كثيراً عن «حق التدخل الإنسانى» الذى يمارس فى عالم السياسة والحرب (أو الحرب والسياسة ، لأن طبول الحرب غير المبررة هى الأعلى صوتاً وقت كتابة هذه السطور) . إن حق التدخل الذى أعنيه ليس «حق التدخل الإنسانى» لكن «حق التدخل فى الإنسان» . وهو الحق الذى تستند إليه الجماعات التى نناقش فكرها هنا ، فى الدعوة التى ذكرناها إلى تجاوز «التجربة الإنسانية» نفسها والتخلص من قيودها . إن أصحاب هذا الفكر يتطلعون إلى بدء التاريخ ما بعد الإنسانى Posthuman History ، الذى لن يحدث إلا إذا أتينا إلى الوجود بكائنات ما بعد إنسانية Posthumans عن

طريق التدخل الحاد والجرئ فى الطبيعة البشرية وتطويرها . ويرى هؤلاء أن الأمر يحتاج إلى مرحلة انتقالية تتم على أيدى المقتنعين بتجاوز إنسانيتهم Transhumans . إنهم يرون أن الإنسانية ليست نهاية محتومة لقدرنا التطورى ، وأن المرحلة الجديدة تعتمد على تطوير نوعنا بأنفسنا .. أن نقول كلمتنا بعد أن قالت الطبيعة كلمتها . وينطلق مشروعهم من الآفاق الممكنة والمحتملة للدمج بين التطور والمعلوماتية والتكنولوجية الحيوية ، بهدف «هندسة» كائناتهم الموعودة ذات القدرات الفائقة والتنوع الكبير ، بحيث لا يربطهم بنا إلا اعتبارنا «أصلهم المشترك» !!! (هل يذكرك ذلك بالأصل المشترك بين الإنسان والقردة العليا ؟ ... قد لا تخلو هذه الفكرة من الوجاهة) .

وقبل أن نسترسل ، نرى أن من حق القارئ والتساؤل : هل يندرج هذا الفكر تحت «الخيال العلمى» ؟ والإجابة الموضوعية – بعيداً عن الحكم القيمى على ما قد يكون فيه من خطأ أو صواب – ليس بالضبط . فحجم التدخل الممكن والمتوقع كبير ... كبير . وإهمال القراءة النقدية لهذا الفكر هو الخطأ بعينه . إن «صدمة المستقبل» الناجمة عن التغير المتسارع ، ومحاولات الإنسان أن يتكيف مع آثاره ، قد تبدو متواضعة أمام هذه الصدمة الجديدة ، التى تعد تطوراً نوعياً للصدمة الأولى . إن الصدمة الجديدة لا تكتفى بتكيف الإنسان مع ما يحدثه من متغيرات ، لكنها تدعو إلى تغيير الإنسان نفسه ، وتؤكد القدرة على ذلك وحتمية حدوثه . لذلك ، فهى تعد بحق قمة «صدمة المستقبل الثانية» ، وإن كان من الضرورى أن نفهمها فى ضوء استيعابنا لما تعنيه «صدمة المستقبل الأولى» ، التى شرحها لنا توفلر ، لذلك أقترح أن نبدأ باعادة قراءة «مشروع توفلر» والتعرف على ما يعنيه «بصدمة المستقبل» ، لنعرف كيف تجاوزتها الأحداث وصولاً إلى الصدمة الجديدة ، التى نستعرض ملامحها قبل أن ننتهى بالحديث عن قمتها وما تدعو إليه من تجاوز الإنسان لإنسانيته ، حتى نضع الموضوع فى إطاره الشامل والمتكامل .